2

هل الحرية الجنسية حرية كوكبية؟

إن خطاب تحرير "النساء المحجبات" ومناظرات الكونجرس الأمريكي حول خدمة النساء في الجيش، ثم الاعتداءات الجنسية في سجون أبي غريب وخليج جوانتانامو، ومسألة النوع والاختلاف الجنسي والطبيعة الجنسية كلها ستؤدي دورًا رئيسًا في بناء المفهوم الغربي "للحرية الكوكبية"[1]. وفي هذا الفصل، أطرح رؤيتي بأن الحرية الكوكبية تشهد عملية إعادة تعريف من زاوية الحرية الجنسية، التي تصور بوصفها حرية عرض الجسد الأنثوي، وارتداء أي ملابس، وحرية التسوق لشراء تلك الملابس. فقد اختزلت حرية النساء في الغرب في حرية الملبس (ولا سيما الملابس المكشوفة لعيون الآخرين) التي تحكمها قوى السوق الخاصة بالموضة والروح الاستهلاكية. وتستخدم هذه الرؤية لحرية النساء لتبرير العمل العسكري خارجه، ولتؤكد للغربيات تمتعهن بالحرية في أوطانهن. ويُخْفِي خطاب تحرير النساء خارج العالم الغربي قهرَ المرأة داخله، وفي الوقت نفسه يؤكد لنا أننا - الغربيات - نتمتع بالحرية. وأقوم في هذا الفصل بتحليل الأساليب التي يتبعها المتحدثون عن تحرير "النساء المحجبات" من "التقاليد المتخلفة"، وأبين أنها تحمي صور الحرية والتميز المرفوعة هنا في العالم الغربي.

كما أنني أُبَيِّن كيف أن هذه الأشكال من التحرر - هنا أو في الشرق الأوسط - تقترن ببنى وممارسات مقيِّدة. ففي الولايات المتحدة مثلاً

أنتجت حركة تحويل الأمومة إلى مهنة معايير ضبط تتبناها النساء لدرجة أن كثيرات منهن لا بد لهن أن يلجأن إلى استخدام عقاقير طبية – مثل الحبوب المنومة والبروزاك،(*) وتناول كمية كبيرة من الكافيين للوفاء بجدول مهماتهن الضاغط. وفي هذا السياق، ما معنى الكلام عن حرية النساء أو إرادتهن الحرة؟ إذا اختزلت الحرية في حرية التسوق أو حرية إنجاب وتربية الجيل الجديد من المستهلكين الجيدين، فهل يدهشنا أن يعاني نساء كثيرات الاكتئابَ ومشاعرَ اللاجدوى واللاقيمة؟ (2).. وأختتم الفصل بتقديم رؤية بديلة للحرية تتجاوز السوق الحرة إلى حرية إبداع حيوات ذات معنى.

تصدير النسوية

في سياقات وأوقات تاريخية أخرى (مثل الاستعمار الإنجليزي في مصر والهند والاحتلال الفرنسي للجزائر والإصلاحيين الجمهوريين في الإمبراطورية العثمانية) طرح علماء النسوية على نحو مقنع، ودللوا بقوة على أن النوع والاختلاف الجنسي والطبيعة الجنسية عناصر جوهرية في تكوين الوطنية والإمبريالية. فقد اُستُخدِمَ تحرير المرأة وحقوق النساء عبر القرون مبررًا للمهام الاستعمارية والإمبريالية التي تدعم مفاهيم الأمة والوطن الأم أو الوطنية. وقد ارتبطت هذه المهام كذلك بإسباغ مفهوم السواء على الشهوة الجنسية في مقابل الانحراف الجنسي المتعلق بأهل المستعمرات من منظور المستعمرين، أو المتعلق بالمحتلين من منظور أهل المستعمرات (وبخاصة في المشروعات الاستعمارية المرتبطة بالشرق – فالغرب يرى الشرق في كبت جنسي والشرق يرى الغرب في انحلال جنسي).

* هذا تفسير مفروض على النص منزوع من سياقه. (المترجم).

وقد تم تطوير مفاهيم الأمة والوطن وتوسيعها وتبريرها من خلال النوع، ومن بينها المجازات المرتبطة بالنوع مثل الوطن الأم والوطن الأب، أو المجازات التي تؤنث البلاد أو المناطق وتذكّرها، ومفاهيم أخرى مرتبطة بالنوع مثل مفاهيم المواطنة، أو مفهوم الجندي المواطن، وهو مفهوم ذكوري مع تأنيث أهل المستعمرات. ففي وسائل الإعلام الأمريكية يتم تصوير أفغانستان وبورما في أغلب الأحوال كأنثى، بوصفها دولاً تحتاج إلى التحرر أو ديمقراطياتٍ ناشئة تحتاج إلى الحماية[3]. وعلى سبيل المثال، رأينا في الفصل السابق، في خطاب حالة الاتحاد لعام 2002م إشارة الرئيس بوش إلى أمهات أفغانستان وبناتها، ليس من باب استدعاء روح الأسرة فحسب، بل أيضًا للربط بين الدولة نفسها والأنوثة.

لا يزال الخطاب الحديث في الولايات المتحدة الذي تصاغ من خلاله مفاهيم الأمة والوطنية والوطن، يدور حول "مسألة المرأة". وبالتحديد فإن قوة خطابات الحرية والديمقراطية والأمن تعتمد على استخدام النوع والاختلاف الجنسي والجاذبية الجنسية – ممثلة في ملبس النساء – في بناء غرب حر ديمقراطي آمن مقابل شرق أوسط إسلامي مزعزع ومستعبد وديني. وتواصل المناقشة الحالية المنطق المعاكس للخطابات الإمبريالية التي تضع "الغرب" مقابل "الشرق"، "المتحضر" مقابل "الهمجي"، "التخلف" مقابل "التقدم"، وهي تقيس هذه الصفات من زاوية النساء والجنس. وعلى سبيل المثال، في خطاب ذِكرى 11/9 من عام 2006م، قال الرئيس بوش إننا نخوض حربًا ضد إمبراطورية إسلامية متطرفة، النساء فيها سجينات في بيوتهن"، وإن هذه الحرب "كفاح من أجل الحضارة ضد المتطرفين الإسلاميين "الأشرار".

إن اهتمام الولايات المتحدة بتحرير النساء خارجها من تقاليد دينية قاهرة تَعُدُّها متخلفة، يعمل على التأكيد لنا على حرية النساء الجنسية في الغرب من ناحية، وعلى شرعية وضع القيود على الإرادة الجنسية للنساء من ناحية أخرى. بمعنى أن التركيز على "الحرية" في أماكن أخرى فيما يتعلق بالنساء والشهوة الجنسية أضعف من أن يحجب قلقًا بشأن حرية النساء الجنسية في الولايات المتحدة. فالجدل الدائر حاليًا حول إعطاء مصل فيروس البابيلوما البشري (HPV) للشابات هو مثال كاشف لعمل القوى المحافظة هنا للحد من حرية النساء. فالمحاولات الطبية تشير إلى أن المصل فعال في منع هذا المرض المتفشي الذي ينتشر بالاتصال الجنسي، وسرطان الرحم الذي غالبًا ما ينجم عنه[4]. يعارض المسيحيون المحافظون إعطاء المصل للفتيات؛ لأنهم يعتقدون أنه سيشجع على ممارسة الجنس قبل الزواج، وكأن الشابات الصغيرات سمعن بهذا الفيروس فضلاً عن امتناعهن عن الجنس خشية الإصابة به.

هل المحافظون المسيحيون أقل اهتمامًا بحياة البنات والنساء من حرصهم على إبقاء النساء رهينات للأدوار المنزلية؟ إنهم بتضييق فرص الحصول على موانع الحمل وإجراء عمليات الإجهاض والتطعيم ضد الأمراض التي تنقل بالجنس، يقيدون حرية النساء الجنسية من أساسها. تقول كاثا بوليت: إن "المسيحيين اليمينيين مستمرون في إظهار نظرتهم المحتقرة للنساء بوصفهن أطفالاً على المستوى المعنوي، ومن ثَمَّ فهن في حاجة إلى السيطرة عليهن جنسيًّا بالخوف. لهذا لا يستجيب معارضو حرية الاختيار إلى مناصري حرية الاختيار في دعوتهم للانضمام إليهم في جهود خفض معدل الإجهاض عن طريق إتاحة موانع الحمل على نطاق أوسع، فهم يريدون تقليل فرص الحصول عليها. ويتجاوز اهتمامهم الحقيقي مسألة حماية الأجنة - فأساسه

ربط الجنس بالإنجاب لتقييد النساء في أماكنهن"[5]. الجدير بالذكر إذن أن الناس على طرفي هذه القضية الخلافية قد اتفقا على إدانة القيود على النساء في الدول الإسلامية، ونشر القيم الأمريكية الخاصة بتحرير النساء، دون أن يفكروا بعمق في وجوه سلب النساء حرياتهن فعلاً في الوطن. ولا بد أن نذكر مرة أخرى اللورد كرومر الذي كان يحارب ضد حصول النساء على حق الانتخاب في وطنه كان يبرر احتلال إنجلترا مصرَ باستخدام خطاب تحرير النساء. إن هذا الاستخدام الانتقائي للنسوية كلما يرجى تبرير عمل عسكري، يخلق وهمًا عن مجتمع اهتمامه الأول النساء وحقوق النساء.

إضافة إلى ذلك، فإن ربط غياب الديمقراطية في الدول الإسلامية الدينية التي تفرض قيودًا على النساء يضفي السواء على المسيحية ويجعلها تخفي حصارها للنساء والشهوة الجنسية. بتعبير آخر، فإن تركيزنا على التقاليد الإسلامية المحافظة عندما ترتبط بالسياسات، وبالتحديد السياسات تجاه النوع والاختلاف الجنسي والشهوة الجنسية، يعمل على إسقاط فكرة تخلف التقاليد الدينية على الخارج في مقابل تقليد ديني مغاير، أي المسيحية التي تختفي عن النظر في أثناء هذه العملية. فإذا كانت الأصولية الإسلامية ترتبط بالعنف والقهر، تصبح الأصولية المسيحية كالهواء الذي نتنفسه، والخلفية المألوفة للعلاقات الاجتماعية والسياسية السوية، وبالتحديد فيما يخص دور النساء والعلاقات الجنسية، فعنفها نقي وخيِّر بينما العنف الآخر فاسد وشرير.

هناك كتابات كثيرة عن دور النساء والنوع والشهوة الجنسية في الغزوات الإمبريالية والاستعمارية في الشرق، وعن دور النوع في بناء الأمم من خلال هذه الغزوات. فمن مقال جاياتري سبيفاك الأصيل "هل يستطيع الأدنى

أن يتكلم؟" (الذي تحلل فيه الطرق التي تُتبع لإسكات النساء الهنديات في الخطاب الاستعماري عن الهند الذي يعتمد على فكرة أنّ الرجال البيض ينقذون النساء السمراوات من الرجال السمر) حتى المناقشات الحديثة لكيفية استخدام هذا الخطاب نفسه من قبل الولايات المتحدة لتبرير غزو أفغانستان لإنقاذ الأفغانيات من حركة طالبان، يبين الباحثون في النسوية أن مصالح النساء وضعت في قلب ما يسمى رسالات نشر الديمقراطية والحضارة[6]. وتقدم بارثا تشاترجي تحليلاً نموذجيًّا لكيفية استخدام البريطانيين حقوقَ النساء في الهند لتقويض سلطة الرجال، سعيًا إلى السيطرة على المستعمرات[7]. وقد بيَّن الباحثون في النسوية أيضًا الطرق التي تتبعها الحركات المحافظة والإصلاحية على حد سواء في الشرق الأوسط في التعامل مع الخطاب العكسي القائل بالشرق في مواجهة الغرب الذي يركز على النساء ومكانهن في الفضاءين المنزلي والعام، وعلى وجه الخصوص ملابسهن كما يتبلور ذلك في المناظرات حول التحجب. تقول ليلى أحمد، مثلاً، إنه منذ بداية القرن العشرين صار الحجاب تدريجيًّا رمزًا للمقاومة والتقاليد الإسلامية في وجه حرص أوروبي على نزع حجاب المسلمات.

حق النساء في كشف أذرعهن

لا يزال الحجاب (مع البوركا وأشكال أخرى من الشادور) رمزًا مثيرًا للجدل داخل الخطابات الإمبريالية الغربية وداخل خطابات مقاومة التغريب. ومما يذكِّر بالاحتلال الغربي للجزائر في خمسينيات القرن العشرين تركيز الغزو الأمريكي لأفغانستان على محنة الأفغانيات، حيث ينظر إلى الحجاب والبوركا بوصفهما تجسيدًا للقهر. وقد امتدحت مقالات كثيرة الحملة العسكرية "لرفع الحجاب" عن الأفغانيات، فيتحدث الرئيس بوش

عن مساعـدة "النساء المحجبات". وتبدو المحـاولات الحالية لإعادة حجاب النساء في العراق ردَّ فعلٍ ضد الاحتلال الأمريكي، حيث صار التغريب مرتبطًا بالحريـة الجنسية للنساء، كما تدلل ملابسهن على هذا، وكذلك قدر المستور أو المكشوف من أجسادهن. وقد صار الحجاب رمزًا لقوى الاستعمار الغربي، كما كان الحـال في القرنين التاسع عشر والعشرين، أما حصار حركة النساء وملابسهن فقد تحول إلى رمز للقيم "التراثية" أو "الأصيلة" ضد التحديث والدمقرطـة والتغريـب، الذي تجسده الحريـة الجنسية للنسـاء. كذلك فإن الربـط بين الغرب والحرية الجنسية للنساء له مـا يوازيه في مفاهيم التحرر والحرية الغربيـة التي تدور حول تحرير "النساء المحجبات"، اللاتي يُعتبرن مقهورات بسبب إجبارهن على الحياة تحت الحجاب.

في الخطابـات الغربيـة يعد كشف النسـاء أجسادَهـن علامة حريتهن الجنسيـة؛ فحرية النساء تختزل في الحريـة الجنسية التي تختزل بدورها في حرية كشف أجسادهن علنًا. وسواء كان حق النساء في كشف أذرعهن لا يعدو أثره أن يجعلهن أسهل منالاً للرجال، أو يسمح لهن بالاحتفاء بأجسادهن، فإن إرادتهن محاصرة بقوى اجتماعية تضبط كما تحرر. فالمرأة "العصرية" هي موضوع السوق الحرة وحريتهـا حرية تسوق. ومن الجدير بالذكر أن الرئيس بوش قـدم عبارة "النساء المحجبـات" - يوازي تعبير النسـاء الملونات - في سيـاق حرية التسوق. ففـي خطاب أمام وزارة الخارجيـة بُعيد الحادي عشر من سبتمبر 2001م، حكى بوشـ "قصصًا عن مسيحيات ويهوديات يساعدن النسـاء الأمريكيات العربيات المحجبـات على الذهاب للتسوق؛ لأنهن يخشين تـرك بيوتهن وحدهن". وفي مؤتمر صحفي بعد أسبوع من ذلك، أثار موضوع الوحـدة الدينيـة لأمريكا التي تتجسد في ذهاب النسـاء معًا للتسوق: في مدن عديـدة عندما علمت النساء المسيحيات واليهوديات أن المسلمات، المحجبات،

خائفات من ترك بيوتهن وحدهن... فذهبن للتسوق معهن... وهو عمل يُظهر للعالم الطبيعة الحقيقية لأمريكا"، مما يوحي إلى أن الطبيعة الحقيقية لأمريكا هي حرية النساء، من كل الأديان، في التسوق[10].

حتى لو كان لدى المرأة بطاقة ائتمان بلاتينية بأقصى حد ائتماني، فإن حريتها في التسوق تظل خاضعة لأعراف تخص الملابس، يحكمها العمر والطبقة الاجتماعية والعرق والقدرة والمهنة، وغيرها. فلا يمكن أن تظهر لورا بوش أو كوندوليزا رايس وهي ترتدي قميصًا يكشف بطنها، أو وهي تضع حلقة في صرتها، أو وهي ترتدي بنطالاً ضيقًا (جينز) يصف الجسد. أو ترى جورج دبليو بوش وهو يرتدي سراويله ذات أرجل واسعة ووسط منخفض يظهر من تحته سراويله الداخلي. وليس النساء وحدهن هن المستهلك المستهدف للملابس فقط، بل إنهن يعرِّفن بها، فربما لا تصنع الملابسُ الرجلَ، لكنها بالتأكيد تصنع المرأةَ. فمثلاً، إنك لا تجد مقالات تذكر خزانة ملابس ألبرتو جونزاليس، ولو ذكرت أنه أول نائب عام من أصول لاتينية (ربما كان دوره في إيجاد ثغرات في بنود معاهدة جينيف التي تخص التعذيب هو ما صرف الانتباه عن ملابسه)، ولكن إحدى المقالات في صحيفة نيويورك تايمز عن ترقية فرانسيس فراجوس تاونزند إلى منصب مستشارة الأمن القومي بها تعليق يقول: إنها "صارت نموذجًا للأناقة بشعرها المصفف بعناية، وحللها راقية التفصيل، وسلوكها العام الهادئ"[11]. فإن وظيفتها الجديدة تعني لباسًا جديدًا، وحتى شخصيتها الجديدة موصوفة باصطلاحات الملابس - وهي ملابس في هذه الحالة توحي بحراك طبقي صاعد. وعندما ارتدت وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس حذاءً أسود برقبة، تهافتت الصحف في الحديث عن "الحذاء الأسود الجلدي ذي الرقبة والكعب العالي الدقيق الذي يوحي

بمظهر المرأة المهيمنة الداهية كما في فيلم "ماتريكس""[12]. وحتى الكاتبة روبن جيفهان من هيئة تحرير صحيفة واشنطون بوست، لم تستطع مقاومة تخيل رايس في صورة المرأة المهيمنة؛ لأنها كانت ترتدي ملابس سوداء وحذاء أسود ذا رقبة: "ينطق معطف رايس وحذاؤها ذو الرقبة بمعاني الجنس والقوة – ويا له من مزيج غير مستقر! وهو في الدوائر السياسية نادرًا ما يؤدي إلى أي شيء سوى الفضيحة. فعندما أنظر إلى صورة رايس في مدينة فيسبادن – في ألمانيا –، يبحث العقل عن طرق تضع هذه الصورة كلها في سياق. فيذهب العقل إلى القصص وإلى الكاريكاتير، ويذهب إلى أحلام اليقظة الضبابية، إلى المرأة المهيمنة! وكأن الجنس والقوة لا يجتمعان إلا في الخيال. فإذا جمعت بينهما امرأة في عالم الواقع، تأتي الصورة النمطية العنيدة وتحول قوتها إلى شكل هو جنس خالص"[13]. وعلى الرغم من أن جيفهان تعلق على اختزال مزيج الجنس والقوة في القوة الجنسية، فإنها لا تعلق على ربط النساء في المقام الأول بالجنس. وإن هذا التركيز على ملابس النساء (وليس ملابس الرجال) لا يدلل فقط على أحد وجوه تعريف النساء بأجسادهن وجنسهن، بل يعرّف دورهن باختيار الملابس التي يرتدينها.

حرية التسوق

الملابس علامات دالة على الطبقة (والعرق والنوع والجاذبية الجنسية) في الثقافات المختلفة. ولكن الملابس الغربية ترتبط فوق ذلك بالتحديث والحضارة. فمثلاً، عند مناقشة حملات خلع الحجاب في القرن العشرين ثم العودة إليه في إيران، تخلص عفصانة نجمابادي إلى أن "الأهمية التي كانت تعزى إلى قواعد لباس النساء ذات دلالة كبيرة؛ إذ تشير المذكرات الحكومية الرسمية لثلاثينيات القرن العشرين إلى قواعد اللباس الجديدة

بعبارة "لباس التجددي نسوان" (بمعنى ملابس الحداثة للنساء) كما كانت قضايا حقوق النساء تناقش من زاوية "ملابس الحداثة" و"ملابس الحضارة" المرتبطة بالتغريب و"المفاهيم الغربية للحرية"[14]. وعلى العكس من ذلك، فإن المفاهيم الغربية للحرية ترتبط أساسًا بالنساء، وبالتحديد بحرية النساء في كشف أجسادهن، وحقهن في التسوق لشراء الملابس وأدوات الزينة. وكما رأينا في التغطية الإعلامية لسقوط طالبان في أفغانستان، فإن حرية النساء تصبح حرية اختيار ما ترتدي، وتمارس المرأة المتحررة حريتها في الاختيار بالتسوق، فحريتها في التسوق تعدل حريتها في التصويت.

وعلى سبيل المثال، تحوي مجلة التايم مقالة مصورة بعنوان "كابول بعد رفع حجابها" وتبدأ كالآتي: "تمشي امرأة في زيّ البوركا التقليدي بين نواحي كابول الحضرية المخربة، بالقرب من السوق الرئيسة. فقد رُدت، بسقوط المدينة، إلى الأفغانيات حرياتهن التي حُرِمْنَ منها تحت حكم طالبان – والآن بأيديهن اختيار طريقهن"[15]. وتواصل المقالة المصورة عرض نساء يرتدين البوركا، ويشترين البوركا، وكلها على صورة واحدة، يشترين أدوات الزينة والعناية بالشعر، ويشتري الرجال بطاقات معايدة تصور نساءً وقد جذبتهن دمية ترقص رقصة الهولا، وكانت نصف الصور للقاءات نسوية ولنساء في مستشفى للولادة، والنصف الآخر صور تسوق، مما يوحي إلى أن تحرر الأفغانيات يعني حرية التسوق. وفي تحليل قوي للأوجه التي استُغلت بها هذه الصور لتبرير الغزو الأمريكي، تخلص دانا كلاود إلى أن المقالة المصورة "كابول بعد رفع حجابها" تتأرجح بين تصوير نساء بزي البوركا ونساء "سافرات" (بعد رفع حجابهن)، نساء بالزيّ التقليدي ونسويات وامرأة منسقة أخبار للإيحاء البصري بأن النساء تحررن على يد القوات

الأمريكية. ومن خلال تجاور الصور، توحي هذه المقالة المصورة بأن التحرر والديمقراطية والحداثة تعرف من زاوية حرية التسوق[16].

تقول نائبة رئيس جمعية "رسالة النساء الأفغانيات" سونالي كولهاتكار إنه "في حين تقدم أوبرا وينفري قصصًا مؤثرة عن أفغانيات استطعن أخيرًا أن يرتدين الكعب العالي والأثواب المكشوفة، يتعرض النساء الأفغانيات للتهميش على المستوى السياسي ويوعدن بتطبيق المزيد من قوانين الشريعة -الإسلامية-"[17]. وكما تقول كولهتكار وغيرها من النسويات بمن فيهن الجمعية الثورية لنساء أفغانستان، فإن حرية اللباس والحق في التسوق بالنسبة للأفغانيات تأتي على حساب حريات أخرى، وتجلب معها قيودًا ضابطة من نوع مختلف[18]. ومن الجدير بالذكر أن كولهتكار تنتقد كذلك زعيمة حركة "الأغلبية النسوية"؛ لأنها تقصر اهتمامها على مسألة ختان الإناث في أفغانستان (وهي عادة ليس لها وجود في الواقع)، ومن ثَمَّ توحي إلى أن "قهر -الأفغانيات- مصدره أنهن عاجزات عن التمتع بلحظة الذروة -في العلاقة الجنسية-"[19]. وتخلط زعيمة الأغلبية نفسها فيما يبدو بين حرية النساء والحرية الجنسية. لكن من الأمور الدالة أن حريتها الجنسية لا تختزل في الحق في كشف الذراع أمام الناس، بل تتضمن الإشباع الجنسي واللذة، وهذا يوحي إلى الإرادة الجنسية وليس التشيؤ الجنسي.

قدمت عالمة الإنثروبولوجيا ليلى أبو لغد توثيقًا للأوجه التي يعكس بها خطاب تحرير المرأة المسلمة الحالي الخطابات السابقة الاستعمارية والتبشيرية التي لم تكن تستخدم لتبرير المشروعات الاستعمارية فحسب، بل إنها أدت كذلك إلى ظهور ممارسات منزلية وتربوية وسياسات محررة ومقيدة معًا"[20]. فهي تبين كيف صارت النساء والنوع رموزًا خلافية للحداثة

والتغريب والديمقراطية، كما تصف ليلى أبو لغد أوجهًا لمسألة النساء والنوع تدل على أن ما يسمى "أشكال اللباس والزواج والتنظيم المنزلي الغربية" تجلب معها أنظمة ضبط تقيد الحياة اليومية للنساء[21]. ففي إيران وتركيا، مثلاً، اقتضى خلع الحجاب ودخول الفضاءات العامة أن تجد النساء طرقًا جديدة لظهور أجسادهن بحيث تحفظ لها الانضباط والعفة والاحتشام[22]. وحسب كلام ليلى أبو لغد: "تحاول البدويات الشابات في مصر مقاومة الكبار في العائلة ومقاومة أشكال الهيمنة القائمة على صلة الدم التي يمثلونها عن طريق اعتناق جوانب من الجاذبية الجنسية المسلعنة - بشراء أدوات التجميل والأثواب الفضفاضة - التي تحمل معها أشكالاً جديدة من السيطرة والجدية معًا"[23]. فيصبحن رهينات معاييرَ جديدة للجمال والأنوثة. ففي تقارير حديثة، نجد أنه حتى من يسمين بجيش فتيات الاحتياط من الإيرانيات المغتربات يوصفن من زاوية لباسهن - "أغطية رأس ذات لون كاكي، وزيّ ميدان بسراويل وأحذية برقبة". وحسب خاتمة إحدى المقالات، فإن هؤلاء الفتيات فيما يبدو يقاتلن للحصول على حق وضع صبغة الشفاه[24]. مرة أخرى ترتبط الحرية بالحرية الجنسية التي لا تختزل الحرية في السوق الحرة فحسب، بل تسلعن أجساد النساء وجاذبيتهن الجنسية، وتجعلهن متوافرات في شكل بطاقات معايدة تباع الآن في كابول، وصور مألوفة لنساء شبه عاريات من هوليوود وبوليوود.

إذا كان تحرير "النساء المحجبات" من "التقاليد المتخلفة" سيجلب عليهن أشكالاً جديدة من القيود وسلعنة الجاذبية الجنسية، فلا بد لنا أن نسأل عن وظيفة هذا الخطاب الذي يعتمد على تثبيت ارتباط صور الحرية والتميز بالنساء الغربيات. ونسأل كيف تساعد صور النساء المقهورات في الخارج على طمأنة الغربيات على أنهن يملكن حريتهن؟ بل كيف تسهم

هـذه الصور في بناء المفاهيـم الغربية عن حرية النساء علـى أساس الحرية الجنسيـة، وهـي مفاهيم تعيد توريـط النسـاء في شبكة قيود مـن اقتصادات النـوع والجاذبية الجنسية؟ وبالتأكيد فإن الصور الآتية من بلاد أخرى تظهر فيها النساء في ستر كامل، ومرهونات بالفضاء المنزلي ومحرومات من حرية التعبـير، تجعل النساء في الغرب سعيدات بالحياة في مجتمع يبدو عليه تقدير حرية النساء. إن هذه الصور بالتأكيد أقرب إلى إبراز القيمة المبذولة لحرية النساء في الغرب. بل إنها تعد مذكرات لزمن يبدو الآن بعيدًا في أغوار الماضي لم تكـن حرية النساء فيه ذات قيمـة، عندما كانت النساء محرومات من حق التصويـت أو شغل المناصب العامة، عندما كانـت النساء مرهونات بالفضاء المنزلي، وكـن يعتبرن من أملاك آبائهن أو أزواجهـن. لكن ذلك الزمن ليس بعيـدًا إلى هذا الحـد (بضعة عقود) فقـد كانت القوانـين المدونة في ولايات كثـيرة لا تعامل النساء بوصفهن أشخاصًا وتفرض عليهن قواعد للباس تطبق في كل المدارس العامة، وكان النساء (ولا يزلن) ممنوعات من بعض الوظائف والألعاب الرياضية والمناصب العامة. وإن تصوير المسلمات على أنهن ضحايا تقاليد "متخلفة ليساعد على إرساء فكرة أن قهر النساء هو شيء من الماضي بالنسبـة إلى الغرب، ويستر أوجه التمييز ضـد النساء الذي لا يزال قائمًا في الولايات المتحدة، وغيرها مما تسمى الثقافات الغربية".

إن استخـدام إدارة بوش خطاب "جلب الديمقراطيـة" إلى "مناطق كاملة من العالم" تحترق سخطًا وطغيانًا، وجلب الحرية "للنساء المحجبات"، هذا الاستخدام يواصل تراثًا استعماريًّا يعامل أهل الحضارات الأخرى كأنهم "أسـلاف معاصرون" لا بد من تحديثهـم بالتكنولوجيات والأيديولوجيات الغربيـة - ومن ثَـمَّ فهذا يبرر الاحتلال والحرب[25]. قـام عديد من الباحثين

في مجال دراسات الشرق الأوسط بمناقشة الأوجه التي تسقط بها مفاهيم الحديث والحداثة مع مفاهيم المتحضر والحضارة، وافتراض التخلف والهمجية في الشرق بافتراض أن الغرب قد تجاوزهما[26]. واقتبس من كلمات أبو لغد: "أنتجت مفاهيم الحداثة وأعيد إنتاجها من خلال مقابلتها بغير الحديث في ثنائيات متناقضة تتراوح بين الحديث - البدائي في الفلسفة وعلم الإنسان، والحديث - التقليدي في النظرية الاجتماعية الغربية ونظرية التحديث، فضلاً عن ثنائية الغرب - اللاغرب التي تنطوي عليها أغلب هذه الثنائيات المتناقضة[27].

يمكن للديمقراطيات الغربية أن تؤكد لنفسها أنها حرة، وأن العبودية وقهر النساء من ماضيها، وذلك بإسقاط ذلك الماضي على الآخرين الذين تراهم متخلفين وبدائيين أو همجيين، وكلها صفات توحي إلى أن الآخرين يمثلون مرحلة ماضية في التطور المتصاعد للعالم الغربي. ونحن نرى هذا المنطق مستخدمًا اليوم، فمثلاً عندما سئل الرئيس بوش عن أثر صور لصدام بملابسه الداخلية على العالم الإسلامي، قال: "لا أظن أن صورة تلهم القتلة، وأرى أن ما يلهمهم أيديولوجية شديدة الهمجية والتخلف إلى درجة تجعل من الصعب على كثيرين في الغرب أن يفهموا كيف يفكرون". ويوحي الخطاب الذي يستخدمه بوش إلى أن العالم الغربي ليس بعيدًا عن الهمجية والتخلف فحسب، بل عن الأيديولوجية نفسها. أما عندما صدر تقرير منظمة العفو الدولية الذي يقول: إن ممارسات التعذيب الأمريكية حولت سجن خليج جوانتانامو إلى جولاج gulag (*). فقد وصف متحدث رسمي محافظ التقرير

* اختبارات نفسية لقياس الشخصية والذكاء صممها عالم النفس السويسري هيرمان رورشاخ (1884م- 1922م)، وهي عبارة عن بقع حبر مصممة بطريقة مقننة ويذكر المفحوص ما توحيه إليه هذه البقع. (المترجم).

بأنه "غير أخلاقي" وغير "راشد"، كما قال إن أي شخص "متحضر" سيؤيد أخلاقيًّا استخدام تكتيكات قاسية في هذا الموقف[28]. وقال نائب الرئيس ديك تشيني: إن "من المهم أن نفهم أن المحتجزين في جوانتانامو أناس أشرار"[29]. ونلاحظ استخدامه تعبير "أناس أشرار" بدلاً من "مجرمين محتملين". وتوحي هذه التعليقات إلى أن الناس في الولايات المتحدة طيبون وعلى خلق وراشدون ومتحضرون، أما غيرهم، ولا سيما في تلك الأماكن المرتبطة بالإرهابيين، فهي شر وغير أخلاقية وطفولية وغير متحضرة.

وكما رأينا، فبعد أن حظيت النساء في العالم الغربي باستقلالهن، تحولت النساء خارجه إلى رموز للقهر - في ثقافات شريرة ولا أخلاقية وطفولية وغير متحضرة. فقد وضعت النساء المحافظات في الولايات المتحدة في مراكز مرموقة ليهاجمن قهر النساء والعنصرية في أماكن أخرى. فهل صرن مدافعات عن الرجال البيض الأثرياء الذين لا يزالون يهيمنون على السياسة؟ وعلى سبيل المثال، جُندت السيدة الأولى لورا بوش، وزوجة رئيس الوزراء البريطاني طوني بلير، في عام 2001م بعد غزو أفغانستان، لإلقاء خطابات تتحدث عن تحرير الأفغانيات، وكان مما قالته لورا بوش: "إن الحرب على الإرهاب هي كذلك حرب من أجل حقوق النساء وكرامتهن والمتحضرين في العالم بأسره". أما أول وزيرة خارجية سوداء، كوندوليزا رايس، فقد ذكّرت مصر بأن للولايات المتحدة "تاريخها في العبودية والعنصرية"، وكأن العنصرية في الماضي فقط بالنسبة للولايات المتحدة، وكأن مصر تمثل مرحلة ماضية في تطور الولايات المتحدة. (ومن الجدير بالذكر أن رايس تعرّف الحرية والتحرر من زاوية الاقتصاد،؛ إذ تسأل كيف لمنطقة كاملة تتكون من اثنتين وعشرين دولة لا يتجاوز اقتصادها جميعًا حجم اقتصاد إسبانيا:

"كيف ذلك؟ ليس للأمر بالتأكيد علاقة بذكاء الشعب العربي، وبالتأكيد لا علاقة له بطموحاتهم؛ وإنما يتعلق بغياب الحرية وغياب التحرر")[30].

لا يـزال دور المرأة المسلمة المحجبة في بناء وتعزيـز صور المرأة الغربية الحرة وفكرة مواطنة النساء، يمثـل إسقاطًا لصور الشرقيات بوصفهن إماءً للتقاليد. وترى عالمـة الإنثروبولوجيا جين كوليه أن مفهومي الحرية والموافقة الغربيـين، وبالتحديـد موافقـة النسـاء، تم تعريفهمـا مقابل صـورة النساء المسلمات اللاتي تُهمَـل موافقتهن في الزيجات المرتبة وصور الحريم في نهاية القرن في أوروبا:

لا بـد أن صور المسلمات المحجبات والحريم قد لعبت كذلك دورًا في بناء مفاهيـم حريات النساء الغربيات... فالموافقة تـبرز بوصفها اختلافًا أساسًا بـين المسلمات "المقهـورات" والغربيات "الحرائر"، في أثنـاء القرن التاسع عشـر، عندمـا كانت حركـة التصنيع تحـول النساء الراشـدات من عضوات منتجات في مشروعـات أسرية إلى معالات اقتصاديًّـا، وعائلهن زوج يحصل علـى أجـر أسبوعي منتظم... ولا بـد أن صور المسلمات المقهـورات اللاتي لا يستطعـن الـزواج عن حب، ولا أن ينشئن علاقات حميمـة مع أزواج لهم أكثر من زوجة، قد أدت دورًا كبيرًا في بناء صور الغربيات على أنهن موافقات على نزع سلطتهن في بيوت يزداد توجهها نحو الخصوصية والتقييد[31].

ولا تـزال مفاهيم الحرية والموافقة تعرف مقابـل صور المسلمات اللاتي يفترض حرمانهن مـن الحرية والموافقـة. وصارت الغربيـات، والأمريكيات تحديدًا، مثالاً للحرية، ولكن أي حرية؟ وما الذي يعد حرية؟

الأمومة الإدارية أو الأم راعية كرة القدم(*) أو الأم مديرة تنفيذية

إن ما نشهده في الولايات المتحدة حاليًا ليس مجرد ردة على النسوية متمثلة في حركات محافظة مثل حركة الرجال المسيحيين حافظي الوعد وما تمثله سياسات القيم الأسرية، بل إننا نشهد، بفضل الإنترنت، ارتفاعًا في عدد نساء الطبقة الوسطى والمهنيات اللاتي يعملن داخل بيوتهن من أجل تربية أطفالهن[32].

إن صورة امرأة الطبقة الوسطى الحديثة هي صورة "الأم راعية كرة القدم" التي يطلب منها إدارة الأسرة مثل مدير تنفيذي. ومع التناقص المستمر للخدمات الاجتماعية التي تساعد على العناية بالأطفال وتربيتهم، تزيد الواجبات الملقاة على نساء الطبقة الوسطى في أن يدخلن أطفالهن أفضل المدارس، وأن ينتقلن بهم من نشاط إلى آخر في جداول مُحكمة. إن هذا المزيج من تناقص وسائل الدعم الاجتماعي وزيادة "حِرَفِية" المجال المنزلي يدفع نحو المزيد من الضغط على الأمهات. وعلى سبيل المثال، نشرت صحيفة نيويورك تايمز مقالة حديثة ضمن سلسلة مقالات عن الطبقات الاجتماعية تصور أسرة بيضاء من الطبقة الوسطى تنتقل بانتظام من مكان إلى آخر حسب مقتضيات عمل الزوج. وتقوم الزوجة، كاثي لينك، برسم مخطط به رموز لونية للأنشطة اليومية لبناتها الثلاث وزوجها: "يرمز للابنة الصغرى كاليه – ثماني سنوات – باللون الأحمر. وبعد انقضاء اليوم الدراسي عصرًا تقوم بتوصيلها إلى مكان تدريب كرة القدم على بعد شوارع عدة من البيت. ويرمز إلى كريستينا – وهي في الحادية عشرة من عمرها – باللون الأخضر الغامق، وكيلسي – وهي في الثالثة عشرة من عمرها – باللون الأصفر. ولا بد

---

* البروزاك هو الاسم التجاري لعقار الفلوكسيتاين المضاد للاكتئاب. (المترجم).

من توصيل كريستينا إلى تدريب كرة القدم على مسافة أربعة أميال شمالاً، وتوصيل كيلسي لتدريبها على مسافة أربعة عشر ميلاً جنوبًا... وبعد توصيل كيلسي وكريستينا، على كاثي لينك أن تعيد الكرة فتذهب كاليه إلى تدريب الجولف، ثم عليها انتظار كيلسي لتنهي تدريب كرة القدم قبل أن تأخذ كريستينا إلى تدريب فريق التشجيع، وتقوم أم أخرى بإعادة كريستينا؛ لأن كاثي لينك لا بد أن تكون في البيت عندما يأتي مدرس الرياضيات الخاص إلى كاليه".

هذه الأسر أو "المتنقلات" كما تسميهم المقالة تفصل نفسها في منشآت حضرية حسب الطبقة، وتتحدد اختياراتها حسب مستوى المنازل التي تستطيع سكناها: "هذه الأسر تنأى بنفسها عن العزاب والشواذ والمسنين وأبناء الطبقات الدنيا، إلا من يخدمونهم"[53]. وبداخل هذه المجتمعات المخططة المنفصلة، تحمي الطبقة الوسطى البيضاء نفسها وتراقب حدودها "الصحيحة" بحراسة أمنية وأسوار وبوابات. وخلف بوابات تلك المجتمعات الإقصائية توجد نساء تقول الإحصاءات: إنهن يعانين الارتفاعَ المتواصلَ في نسب الاكتئاب بينهن، الذي يُعالَج بأنواع متجددة من العقاقير الطبية. فهؤلاء النساء يعشن على الكافيين والطاقة العصبية، وبذلك يشكلن جماعة مستنفدة الجهد يتنقلن من نشاط إلى آخر من الأنشطة التي يمارسها أطفالهن. إن موقف أولئك الأمهات المهنيات يثير سؤالاً عن معنى موافقة المرء على موقف ما، ومعنى أن أكون حرة.

مرة أخرى يمكننا أن نتعلم درسًا من التاريخ. ففي القرن التاسع عشر، مع بداية حركة التصنيع، حدثت نقلة جعلت النساء يتركن المجال العام ومكان العمل حتى يتولين مسؤولية الفضاء المنزلي. فكان المتوقع من نساء

الطبقة الوسطى أن يقرن في بيوتهن ويرعين أسرهن. ويمتلئ الأدب الشعبي بالنصائح الخاصة بترتيب البيت وتنظيمه، فقد صارت إدارة المنازل علمًا، وكان المتوقع من النساء أن يهيئن لأطفالهن أصح بيئة وأثراها. ففي مقال نشر في مجلة إدنبرة ريفيو عام 1833م، كانت النساء تسمى "وزيرات الداخلية" المتوقع منهن تسيير العمل في البيت كما يُسَيِّر الساسة العمل في المجال العام. وتشير الباحثة الأدبية جوديث نيوتن إلى أن مجاز السياسة في المجال المنزلي حل محل أي قوة سياسية يسمح بها للمرأة في المجال العام[34].

إن حرفية إدارة المنازل، وتحويل تربية الأطفال إلى علم مما جعل النساء "وزيرات للداخلية"، قد حل محله نموذج الشركة التجارية، حيث تقوم المرأة بمقتضاه بإدارة البيت لإنتاج قادة المستقبل في الاقتصاد الكوكبي. كذلك فإن الخطابات التخصصية في العلم والطب، التي كانت تحكم تربية الأطفال، حلت محلها ممارسات تخصصية جديدة تتخذ الشركة التجارية نموذجًا[35]. فقد لا يكنّ مديرات تنفيذيات في المجال العام، لكنهن كذلك في المجال المنزلي. مرة أخرى، فإن القوة الاقتصادية وعمل الشركات الحقيقي يتحول إلى مسؤوليات منزلية كان تقليديًّا على عاتق النساء، ولكنها الآن انتقلت إلى مستوى مهني جديد. فمع اتجاه النساء إلى أخذ أعمالهن إلى البيت وإخراج عملهن من الفضاءات العامة والعودة إلى الفضاء المنزلي، أصبح يُتوقَّع منهن إدارة بيوتهن كشركة تجارية، وصارت تعاملاتهن العامة تتمركز حول أطفالهن، وتهيئة أفضل بيئة عامة لهم في المجتمع أو المدرسة. فأغلب من يعمل من بيوتهم نساء بيض جذبهن هذا النوع من العمل الذي صار متاحًا بشكل أكبر بسبب أجهزة الحاسب والاتصالات، وذلك من أجل البيت والأطفال (وإضافة إلى زيادة أعداد النساء اللاتي يعملن من بيوتهن،

فـإن "معـدل المشاركة في قـوة العمل بالنسبـة لأمهات الأطفـال دون الثامنة عشرة آخذ في الانخفاض منذ عام 2000م")[36].

على الرغم من أن هذه المرحلة من أمومة الطبقة الوسطى تسمح للنساء فيما يبدو بأن يحصلن على كل شيء - الأسرة والعمل - فإنهن يشغلن مساحة يتزايـد ازدحامها باطراد، وتمتلئ بالتوقعات التـي تفرض عملاً مستمرًّا من نـوع أو آخـر. ولا بد لنا أن نسـأل: هل هذه الإمكانات الجديـدة أمام النساء، ولا سيمـا حرية العمل من البيوت التـي شحذها الإنترنت، تنتج كذلك أعرافًا مقيدة جديـدة وأشكالاً جديدة من الضبط، وبتحديد شديد أشكالاً مفروضة ذاتيًّـا تحكم حيـاة نساء الطبقة الوسطى، وربما تـؤدي إلى معدلات أعلى من الاكتئـاب التي تسيطر عليها وتنظمها صناعـة الدواء[37]. إن عملية "حرفية" الأمومة وإدارة البيت التي تجعل الفضاء المنزلي غير مستقر بدرجة عالية من ناحيـة، ومن ناحية أخرى تمنح النساء قـوة في البيت، تجلب معها ممارسات ضبط جديدة تقيد اختيارات النساء. كما أن قوة النساء المفترضة في بيوتهن تستمر في إزاحة قوتهن السياسية والاقتصادية في الفضاء العام.

إن التركيز على الممارسات القهرية الانضباطية التي يخضع لها النساء في أماكـن أخرى، تصرف النظـر عن أشكال جديدة مـن القهر والضبط في الولايـات المتحـدة. وإن نعـت تلـك الممارسـات في أماكن أخـرى بالبدائية أو التخلف، يصورها كأنهـا جزء من ماضينا، ليطمئننا على أننا تجاوزنا القهر الذكـوري للنساء الـذي يوجد هناك ولا يوجد هنا. كذلك فـإن إسقاط القهر خارجيًّـا يحمي إحساسنا بذواتنا كأنها متحـررة من القيود. وهكذا يتم ربط قيـود التمييـز الجنسي والذكوريـة بهؤلاء النسـاء الأخريـات، وبذلك تصاغ صـورة الغربيات بوصفهن حرائر ومستفيـدات من ديمقراطية تمنح المساواة لكل النـاس بغض النظر عن الجنس أو العرق أو الدين.

في لباس القتل

كما رأينا في الفصل السابق، لا يظهر القلق على إرادة النساء الجنسية في "الحرب على الإرهاب" في الحرص الغربي على نزع حجاب "النساء المحجبات" فحسب، بل يظهر كذلك في الربط المتكرر للجاذبية الجنسية الأنثوية بسلاح الحرب، وأبرز مثال على ذلك استخدام محققات في سجن خليج جوانتانامو، حيث تستخدم التنورات القصيرة، والملابس الداخلية الملتصقة بالجسد، واللمس الجنسي، ودم الحيض الكاذب "لكسر" السجناء المسلمين المعاندين. ويبدو أن الحرية الجنسية للنساء وإرادتهن الجنسية قد أُستخدمت أسلوبَ تعذيبٍ من قِبل العسكريين الأمريكيين. وكما رأينا، فقد ذهبت التغطية الإعلامية لعمليات الاعتداء الجنسي في جوانتانامو بعيدًا في الربط بين النساء والجنس، حتى إنها قالت إن الجنس الأنثوي سلاح. ولنذكر العنوان الرئيس لأحد المقالات في مجلة تايم: "تقارير جديدة عن الاعتداء على المحتجزين في جوانتانامو تشير إلى استخدام المحققين الجنسَ الأنثويَّ سلاحًا"(38).

وكما طرحنا في الفصل الأول، فإن تكتيكات الاستجواب المصبوغة بالجنس تصير بدائل اختزالية للطبيعة الجنسية الأنثوية كلها، وتجعل النساء يمثلن الجنس نفسه. فالجنس الأنثوي يختزل في مجرد تكتيك أو إستراتيجية (مرة أخرى ترتبط باللباس - أو بالعري)، أو سلاح خطير يمكن استخدامه ضد أشد الرجال مقاومة. وقد بسط العسكريون الأمريكيون سيطرتهم على هذا "السلاح الخطير" بهدف استخدامه في جهود مكافحة الإرهاب، تلك الجهود التي ربطت بتحرير "النساء المحجبات". وهكذا تكون النساء المتحررات "حرائر" في استخدام أجسادهن شبه العارية في خدمة

بلادهــن، ومــن ثَمَّ يكتسب الحق في كشـف الأذرع معنى جديـدًا. ولنذكر أنه في حالـة الانتهاكات في أبي غريـب، كانت النسـاء ضالعة فيهـا، وبعضها كان جنسيًّـا ودينيًّـا، وقد مَثَّل ذلـك صعوبة في التصنيـف في أول الأمر لجماعات حقوق الإنسان، كما أن بعض ردود الأفعال على التقارير التي كشفت استخدام التنـورات القصيرة واللمس الجنسي في سجـن جوانتانامو استحضرت صور ما يسمى "رقصات الحجـر العارية"[39]. ففي عمود صحفي عنوانه: "فتيات التعذيب يجمحن" تقول الكاتبة مورين دود: "الموقف يشبه فيلمًا إباحيًّا رديئًا عنوانـه "مونولوجـات جنيف" أو "الـكل S ولا وجود لـ (M)"[40]. وفي حين قال بعض المساجين إنهم تعرضوا للتعذيب على يد "مومسات" دعمت وسائل الإعـلام المحافظة أحد المواقف الشعبية القائـل: إن هؤلاء المحققات، ومعهن النساء الضالعـات في اعتداءات أبي غريب، لا بد أن يكن سحاقيات معاديات للرجال... أو نسويات، وقد يعني ذلك شيئًا واحدًا في المخيلة العامة[41].

"سحاقيات أو مومسات"

ليسـت فكرة كون النساء العاملات في الجيش إما سحاقيات أو مومسات بالفكـرة الجديـدة. فقـد كانت مـن كلمـات الترحيـب المعتـادة في البحرية الأمريكيـة في تسعينيات القرن العشرين: "مرحبًا بكنّ في البحرية، فأنتن في عيـون البحرية إما سحاقيات أو مومسات – فاعتدن ذلك"[42]. وكانت القيادة العسكريـة في كامـب دلتا تستحضـر صورًا نمطية ترجـع إلى الحرب العالمية الثانيـة، عندما اتهمت سرية الجيش النسائيـة (WAC) بأنها "كادر دعارة مصمـمٌ لإشباع الحاجات الجنسيـة للجنـود"[43]. وفي مقالتها "سحاقيات أو "مومسـات" .. الجنـس وسرايـا الجيش النسائيـة في الولايات المتحدة في الحـرب العالميـة الثانيـة"، تقول ميشيلا هامـف: إن النـوع والجنس كانا

مرتبطين في سرايا الجيش النسائية بالملبس، بل إن اللباس المستفز، وليس السلوك المستفز، كان العلامة الكبرى للسحاق في النساء، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لشواذ الذكور: "لم يكن السحاق في أربعينيات القرن العشرين يندرج تحت اللواط، بل تحت إخفاء النوع واللباس المستفز"[44]. فالزيّ العسكري يجعل النساء تبدو كالرجال، فيما يفترض، ومن ثَمَّ يرتاب في كون مرتدياته "مسترجلات" أو "سحاقيات". وقد عملت قيادة سرايا الجيش النسائية بجد لتبدل صورة النساء المسترجلات أو المنحلات عن طريق تقديم صورة "لا جنسية" تشبه صورة المدرسة الداخلية لبنات الطبقة الوسطى البيض"[45].

"نظارات منع الحمل"

في سيرة الجندية جيسيكا لينتش التي كتبها ريك براج - سيرة "الجميلة" التي استنقذت من "الوحش" في الشهر الأول من القتال في العراق، نرى عملية التحييد الجنسي (بل إسباغ الطفولة مع إسباغ "الاحترام") عندما يرسم صورة لها وفي شعرها شرائط ناعمة وزهور القرنفل الجميلة بألوان الباستيل الفاتح؛ فهي فيها الفتاة الطيبة أو فتاة الغلاف بابتسامة "ملكة اللطف" التي تبدو شريرة على وجوه فتيات أبي غريب.

وفي فصل عنوانه "أميرة" يصف براج بالتفصيل اهتمام لينتش بالموضة، و"انشغالها بالتناسق" وأدوات التجميل. ويقتبس من كلام لينتش قولها "كان بوسعي أن أؤدي أفضل في المدرسة الثانوية، لكني لم أُرِدْ أن أفسد ملابسي"[46]. وحسب رواية براج للقصة، كانت النقلة من ارتداء التنورة المدرسية ذات الطيات، ورداء الأميرة والأظافر المطلية إلى ملابس العمل العسكري الخضراء المموهة أصعب جزء في رحلة "ملكة اللطف" في معرض

فيرت كاونتي إلى التدريب العسكري الأساس: "بدأت بكابوس الملابس، فقد أخذ أحد الجنود مقاساتها، وأعطاها أربعة أزياء موحدة، فقالت في نفسها: "يا ربي! هذا مقزز، ولكنها على الأقل متناسقة مع بعضها بعضًا". وكما يروي براج، كانت لينتش "جندية مثالية حتى واقعة ربطة الشعر"، عندما جعلها رقيب التدريبات تؤدي تمرين الضغط عشر مرات؛ لأنها، كما قال، وضعت ربطة لشعرها تخالف التعليمات، وكانت حسب قوله "رائعة"؛ لأنها ما كانت لتسيء اختيار ربطة الشعر، والقصد أن معرفتها كانت عن طريق الملبس ومظهر الشعر. أما جوهرة التاج في خزانة ملابسها العسكرية فقد كانت نظارات عسكرية، وهي نموذج ذو إطارات ضخمة سوداء، يقول براج إنها جعلتها تبدو كشخصية كرتونية. ويورد براج كلام لينتش: "كانوا يسمونها نظارات منع الحمل - وكانت كذلك، نوعًا من وسائل منع الحمل؛ فما من رجل يمكن أن يقترب منكِ وأنت ترتدين تلك النظارات". فأنا بلهاء بأربعة عيون أرتدي نظارات مانعة للحمل"(48). ويدعي براج أنها لم تكن تريد أن يضعف نظرها إلى درجة تضطرها إلى ارتداء تلك النظارات.

تحكي السيرة التي كتبها براج قصة فتاة صغيرة حلوة خجولة تهتم بتناسق زينة شعرها أكثر مما تهتم بالقتال، فالصورة المرسومة لها صورة فتاة صغيرة تحتفظ ببراءة طفولتها دائمًا، وتأخذ دبها اللعبة إلى غرفة الجراحة معها بعد أن تم إنقاذها. هذه الفتاة البريئة تصبح شخصية كرتونية في أثناء التدريب الأساس؛ فملابس تدريبها "جعلتها منتفخة مثل ضفدع كبير"، ونظارات منع الحمل التي ترتديها أبعدت الرجال عنها، ولم تعد تلك البنت التي تهتم بزينتها، فإنها في حماية ملابس التدريب ضد من حولها من الرجال وضد شهوتها الجنسية ذاتها.

إن صـورة الأمريكية الخالصة هذه هي التي جعلت قصتها جزءًا فاعلاً من الحملة الإعلامية العسكرية: عملية الإنقاذ الدرامية مع متابعة بكاميرات الرؤيـة الليلية عالجتها الصحافة وكذلك البنتاجون، ليس فقط لضمان تأييد الحـرب، بل لدفع الحماس في القوات الموجودة على الأرض[49]. ولنذكر قول بـراج إن شائعات أسر جيسيكا وتعذيبها جعلت الجنود الأمريكيين "يريدون أن يقتلـوا" وهم "يفخرون" بذلـك[50]. فقد بررت قصـة لينتش الحرب. في غلاف الكتـاب الإضافي توصف سيرتها بأنها "قصة أمريكية خالصة" منها "نتعلم أهمية أن نكون أمريكيين"، فقد تحولت الجندية جيسيكا لينتش إلى معنـى أن يكون المـرء أمريكيًا في سيـاق وطنية قائمة على الحـرب، والقصة الأمريكية هي قصة الجميلة ضد الوحش.

النساء يخففن وَقْعَ الضربة

يأخـذ تحليل جاياتـري سبيفاك لدور المـرأة التابعـة في كل من خطاب الاستعمـار ومقاومته منحنى جديدًا مع إعـادة التعريفات الجديدة للاعتداء في سجـون أبي غريب وخليج جوانتانامو، حيث توجـه اهتمام وسائل الإعلام إلى مشاركـة النساء. تقول سبيفـاك إن عملية "حماية المرأة ("امرأة العالم الثالث" الآن) تصبح دالة -بالمعنى البنيوي- على إقامة مجتمع "خيِّر" لا بـد لـه، في لحظات افتتـاح كهـذه، أن يتجاوز مسألـة الشرعيـة الخالصة أو المسـاواة في السياسـة القانونية"[51]. ففي حالة "ساتـي" تمت إعادة تعريف مـا كان طقسًا ليكون جريمـة، وفي حالة سجون أبي غريـب وجوانتانامو تمت إعادة تعريف ما هو جريمة تحرمها معاهدة جنيف وهو التعذيب، ليكون "قوة شرعيـة" في الحـرب ضد الإرهاب. وكمـا جعلت لغة تحريـر الأفغانيات أمر الغـزو أكثر قبولاً لـدى عموم الأمريكيين، فإن التركيـز الشديد على اشتراك

النســـاء في أبي غريـب وجوانتانامو يساعد أيضًا علـى إعادة تعريف الاعتداء وســوء السلـوك والانحــراف أو "النــكات" أو "التنفيســ" [52]. كذلــك فــإن اشتراك النساء في عمليات الاستجواب "لتليين" المحتجزين يؤدي إلى تهوين أثر إيجاد ثغرات في بنود معاهدة جنيف حول التعذيب.

وعلى الرغم من أن الرئيس بوش، في خطابه الافتتاحي -لولايته الثانية- عــام 2004م، قد أعلـن أن "أمريكا لن تتظاهر بأن المحتجزين السجناء يحبون أغلالهــم، أو أن النساء يرحبن بالإذلال والتسخــير"، كانت النســاء تتحول إلى أدوات جنسية تستخدم في التحقيق العسكري مع "المحتجزين" السجناء" بلا حماية من معاهدة جنيف. وربما يكون من الأمور الكاشفة أن هذا الخطاب الذي يــردد خطاب حرية النساء قد عرض في موقــع www.cnn.com جنبًا إلى جنب مع إعــلان فيكتوريا سيكريت -سر فيكتوريا- يحــوي صورة مثيرة على شاطئ بحــر به موديل -فتاة إعلانات- ترتــدي لباس بحر من قطعتين -مايوه بكيني- وشفتاها مزمومتان، تنظر بشبق إلى آلة التصوير، ويقول الإعلان: أبدعي أروع "بكينــي" لنفسك... دللــي نفسك بالطريقة التي ترغبينها. فالحرية تصبح حريــة النساء ثم تصير الحريــة الجنسية للنساء، ثم تصبــح سلعنة الجاذبية الجنسية للنساء التي تختزل في حقها في اختيار شكل المايوه "البكيني".

وربما نطرح مرة أخرى سؤال جاياتري سبيفاك عن خطاب جلب حرية الاختيار لما يسمى "نساء العالم الثالث"، إذ تتساءل: "تتميز صورة الرأسمالية بوصفهــا مؤسسة للمجتمــع الصالح بمناصرة المرأة بوصفهــا هدفًا موضوعًا للحمايــة مــن أبنــاء جلدتها. فكيــف للمــرء أن يفحص خــداع الإستراتيجية الذكورية، التي تمنح النســاء حرية الاختيار بوصفهن "ذوات" [53]. فالمرأة في هــذا الخطاب الاستعمــاري تتحول إلى موضوع حتى يصبــح ذاتًا حرة. ولكن هذه الحرية، كما تقول ليلى:

أبـو لغد (وهي تصف النساء في الشرق الأوسط) تجلب "أشكالاً جديدة مـن الخضوع المرتبـط بالنوع (بالمعنى المـزدوج لمكانة الـذات(*) التي للنساء وأشـكال الهيمنة) كما يجلـب خبرات وإمكانات جديـدة"[54]. وكما يفهم من تحليـل سبيفـاك، فـإن المفاهيـم الغربية عن الحريـة مرتبطـة بالمشروعات الاستعماريـة التـي تدفعها حاليًا قـوى رأس المال الكوكبي. وتـرى هذه القوى في النسـاء مفعولات بهن ينبغي إنقاذهـن وذوات فاعلات لهن حرية الاختيار حسب تعريف السوق الحرة: حرية التسوق.

إن صور النساء المقهورات في أماكن أخرى تعمل، كما رأينا، على صياغة صـورة حرية النساء وموافقتهن على حصارهن بالسلعنة الجنسية والسيطرة علـى إرادتهن، ولا سيما إرادتهن الجنسية عن طريـق المؤسسات الغربية من الإعلان والترفيـه والبورنوجرافيا حتـى المؤسسة العسكريـة. فحرية النساء الجنسية تدار من الخارج وتحاصر وتسلعن ثم تقدم بوصفها "حرة" بالنسبة إلى العبودية الظاهرة لغيرهن، كما ترمز ملابسهن وافتقارهن المفترض إلى الإرادة الجنسية.

الكلمة التي تبدأ بحرف F

هـل الرؤية الشعبية الأمريكيـة للحرية تختزل الحرية في السوق الحرة؟ تناقش جوليا كريستيفا الحرية والسلام في كتابها "الكراهية والعفو" فتقول: إن رأس المـال الكوكبـي قد اعتمـد رؤية واحـدة للحرية من عصـر التنوير،

* يستفيد الخطاب النسـوي (وما بعد الكولونيالي) هنا من ازدواج معـاني كلمتي Subject – object: فعلى المستوى النحوي تعني الأولى الفاعل والثانية المفعول به، وعلى مستوى الاستخدام تعني الأولى الـذات والثانيـة الموضـوع أو الهدف، ولكـن الازدواج الذي يحمل المفارقة هو كـون الكلمة الأولى تعنـي الـذات الفاعلة، كما أن بها معاني الخضوع عامة، أو الخضوع لتجربة أو فحص علمي. من هنا فالتحول من موضوع إلى ذات قد لا يعني حركة حقيقية إذا قصد بها معنى الخضوع. (المترجم).

وافترض خطأً أن تراثه إنساني عام مجرد. وطبقًا لفيلسوف عصر التنوير عمانويل كانط، فإن هذه الرؤية للحرية لا تعرف سلبًا بكونها غياب القيد، بل بإمكانية البداية الذاتية التي تفتح الطريق للفرد المغامر والمبادرة الذاتية. وهذه حرية السوق، التي كما تقول كريستيفا "تنتهي إلى منطق العولمة والسوق الحرة غير المفيدة. وإن المحرك الأعلى (الله) والمحرك الفني (الدولار) هما صورتاها المتعايشتان اللتان تضمنان استمرار حريتنا في سياق منطق مبدأ الذرائعية"(55).

قد يكون هذا الشكل التجاري من الحرية أساس حقوق الإنسان التي نرى الأفراد من خلالها وكلاء مستقلين لهم دافعية ذاتية وقضية ذاتية، مع ذلك فإنه يمحو فردانية الفرد ويختزل الحياة الإنسانية في معادلة. إن رؤية الحرية التي تقول إن كل فرد مساوٍ للآخر تؤدي إلى شيء يشبه مقايضة السوق الحرة الخاصة بالبشر التي تعتمد عملية حسابية لا تقدم سوى حرية شكلية ومساواة فارغة. فالحرية يتم تعريفها من زاوية الاقتصادات والأسواق، وتحرير الحكومات من خلال الاحتلال بغرض فتح أسواق جديدة ومستهلكين أحرار جدد مع قليل اهتمام بالاختلافات الثقافية التي تشبه الممتلكات المنقولة. وتصبح التكنولوجيا أداة التسوية التي يتم اختزال الأفراد من خلالها حتى أدنى عامل مشترك أصغر، وسماسرتها يحملون احترامًا صوريًّا للاختلافات الثقافية حتى في أثناء استبدالهم لأنواع من الحرية بأخرى باسم الكلمة التي تبدأ بحرف "Freedom "(*) F -الحرية- بحرف استهلالي كبير -يدل على العَلِمية-.

---

* تلعب المؤلفة هنا على اشتراك freedom النابية وكلمة fuck حرية، إشارة إلى تدني معنى الحرية وتكرار استعمالها بلا معنى. (المترجم).

ولكن كريستيفا تذكرنا بوجود رؤية أخرى للحرية تبعث من التراث الغربي لموازنة الفردية المعولمة، رؤية "تختلف كثيرًا عن نمط المنطق الحسابي الذي يؤدي إلى استهلاكية غير مقيدة"[56]. ويأتي هذا النمط من الحرية من خلال اللغة والمعنى عندما يدعمان فردانية كل فرد؛ فالفردانية لا تتسق مع الفردية؛ لأنها لا تختزل في عامل مشترك أصغر باسم المساواة، فلا المعنى ولا الفردانية يمكن حبسهما في اقتصاد حسابات، فهي عمليات سائلة تتيح وجود منتجات السوق الحرة وأفرادها. وبمعنى ما فإن هذه المنتجات، وهؤلاء الأفراد مجرد بقايا عملية تطمسها الفردانية والمعنى. فكل من المعنى والفردانية تتخللهما ديناميات لا واعية يمكن للسوق أن تتحكم فيها، ولكنها دائمًا تتجاوزها.

وهذا النوع الثاني من الحرية لا يختص بتعظيم العلاقات من تكنولوجيات فاعلة في التسويق والإدارة والمراقبة، بل بالعلاقات المجدية ذات المعنى. فالحرية مشروع دائم إذا كانت بحثًا عن المعنى، وتسميها كريستيفا "توقًا... يدفعه اهتمام حقيقي بالفردانية، وهشاشة كل حياة إنسانية بما في ذلك فردانية وهشاشة الفقراء والعجزة والمتقاعدين ومن يعيشون على المعونات الاجتماعية. كما تقتضي اهتمامًا خاصًّا بالاختلافات الجنسية والعرقية، بالرجال والنساء، مع تذكُّر أن لهم خصوصية متفردة، وليسوا مجرد مجموعات من المستهلكين"[57].

لا بد لنا أن ننتقل من رؤية الحرية وكأنها في مجرد غياب التحريم إلى رؤية الحرية في غياب التضحية. فالحرية ليست أن يذهب كل شيء، بل أن يبقى كل فرد (من أجل اختلافاتهم وفردانيتهم وليس على الرغم منها)، وليس الأمر عدم استبعاد أي شيء، بل عدم إقصاء أي فرد. ففي كتابها

Visions Capitales تشير كريستيفا إلى أن التمثيل الفني يعبر عن نوع من الحرية لا تكمن "في محو المحرمات، بل في التبرؤ من سلسلة أو تروس التضحيات (تشابك التضحيات l'engrenage des sacrifices)، التي تتجاوز بنا الخسارة إلى" سعادة تتخلص من شعور بالرضا الناجم عن التضحية نفسه" (58).

إن تجاوز اقتصاد التضحية يقتضي تجاوز الهويات القائمة على إقصاء الآخرين إلى الضم والتفاعل الذي يقويه السؤال عن معنى كون المرء "فردًا"، "أمريكيًّا"، "مسلمًا"، "إنسانًا" إلى آخره، وتمثيل ذلك. إن التخلص من الخوف من الآخرين وكرههم لأنهم مختلفون عنا يحتاج إلى أن نتجاوز ذهنية "نحن مقابل هم"، و"أنت إما معنا أو ضدنا"، وذلك عن طريق تأويل رغباتنا ومخاوفنا فيما يخص الآخرين والتعبير عنها. إن الأصوليين ينفذون تصوراتهم العنيفة في العالم الحقيقي بدلاً من تمثيل أو تأويل أو التعبير عن تلك الدوافع العنيفة أو الكراهية أو المخاوف. وكما تعلمنا السياسة المعاصرة جميعًا، وبكل وضوح، فإن هذا يؤدي بأعضاء أحد الأديان إلى أن يضحوا بأعضاء الدين الآخر وبأنفسهم معهم. إن تجاوز خسة العالم الواقعي وإقصاء الآخرين وتمثيلات الكراهية والخوف يمكن أن يترجم الدوافع العنيفة إلى قوة حياة مبدعة. وكما سنرى في الفصل الأخير، فإن الأمل في أن يحل المعنى محل العنف نحو الذات والآخرين، حيث تمثيلات العنف والضعف، يمكن أن تحل محل العنف والجرح الفعليين.